مفهوم الموت والحرية في شعر البياتي

بقلم سهيلي عبد الرحمن

رفع الكائن المدهش قامته يوما في الغاب ، ودار مع الارض ومن خلال مشاق لا حد لها تتمثل في كفاحه العنيف لتخطي حيوانيته ، ومن تبادل التأثير بين عقله والواقع الموضوعي ، الفكر والالة ، ومن التطـــور الهائل الذي صنعته ادوات الانتاج ، في وعيه بنفسه ومحيطه ، نبعت وتطورت اللغة والفنون . لقد كانت اللغة ضرورة حياتية تجسد التفكير والمشاعر ، كل لفظة تحمل شحنة من التجارب والانفعالات ، وان كانت لغة العلم طبيعتها التجريد والتحديد ، فان لغة الفن تتصف بالتعبير والتصوير ، وهكذا وافق الفن العلم ، نبعا من شروط موضوعية محددة، واختلفا شكلا ومحتوى ... وان كان الفن العظيم يحمل في تضاعيفه خبرة العلم ، وروعة الفكر ، وشمول المعرفة ، وان كان الفن العظيـــم يحمل في تضاعيفه خبرة العلم، وروعة الفكر ، وشمول المعرفة ، وان كان التكنيك الذي تستخدمه الفنون والاداب (اللغة ، ادوات الموسيقى، الرسم الخ.) مشروطة بتطور مادي وتاريخي معين ، وينعكس هذا كله في المحتوى ويؤثر فيه ـ سلبا وايجابا ـ الا أن هذا ليس قـــانونا ميكانيكيا . فقد وجد على مدى التاريخ الفنان العبقري الذي يتخطـــى عصره ، وينفذ باشعاعات وجدانه وفكره الاطـر والعلاقات الاجتماعية ، ويكتسب فنه بذلك الخلود . هذه مقدمة ضرورية لنفصل اولا بـــين الفن والعلم ، ولنحدد العلاقات السليمة بينهما ، فالفن لا يعادي العلم، وان كانت وظيفته اعم ، ونظرته اشمل ، وانعكاس الواقع الموضوعي على عدسة الفنان والوجدان يعبر عنه بالصور ، بينما يعبر العالم بالمفاهيم والتجـــريد !

ولكن السؤال : ما هي علاقة هذا الحديث النظري بعبد الوهـــاب البياتي ؟ ان هناك علاقة صميمية بين المفهوم السليم للادب ، طبيعتـــه وشروطه وبين الشاعر ، وخاصة أن البياتي يعتبر بالنسبة لادبنا العربي قمة عصرية في الادب الواقعي ، ليس فقط لانه استوعب واسترشـــد بالمعارف الانسانية وحركة التاريخ ، ولكن موهبته وتوقد عواطفه تتخطى الاشكال بل والمضامين السائدة ، وتنفذ في عمق وذكاء الى افاق ومشاكل ابعد يطرحها واقعنا الصاخب المعقد ، والعصر الذي يكاد أن يقذف ويدفن كل حضاراتنا ومكتسباتنا في هوة الموت الفظيع ، ومن ناحية اخرى يكاد هذا العصر ان يبلور الحرية الحقيقية للانسان والمجتمع معا ! . هكذا يجتاز عصرنا اخطر ازمة تاريخية وتتعارك متصارعة قوى الظلام التـــي تملك في ايديها اسلحة التدمير الرهيبة ، الهيدروجينية والتشويـــه النفسي والخلقي ، وقوى الخير التي تدافع عن مقدسات الانسان بذات السلاح الهيدروجيني ، وان رفعت وتوجت شعارات السلام والعدل ، ويقف عبد الوهاب يسحقه هذا الصراع ، وتمزقه الفضائح والاكاذيب ، وترفع رأسه فوق هذا الطوفان . بطولات البسطاء ، ونضالات الشعوب، وامل الانسان في الانتصار .

قضيتان رئيسيتان ـ في هذا الديوان ـ تحتل من وجدان شاعرنا اعمق الاهتمام ، وتلفه بضباب الغربة والتمزق ، وتلفحه بنيران الكفاح، وغبار المعارك ، وتلتقي في بؤرتهما كل الخيوط والانعطافات النفسيـــة والتعبيرية والعاطفية : الموت والحرية ، وهما اخطر قضايا العصر ومشاكله الفلسفية ، وشاعرنا يعبر عنهما في توهج وصدق !

كيف يعبر البياتي عن الموت ؟؟ انه يتغلغل في هذه المأساة الرهيبة، التي لم يعها الانسان خلال كل العصور ... مثلما يعيها انسان القـــرن العشرين اليوم ! ولكنه رغم المعاناة والمرارة لا يذوب في التهويمات، ويفقد صلته بالحياة ، انه يكره الموت لانه يحب الحياة ، اروع منح الوجود !

والبياتي الشاعر المرهف ، لا يقف من الموت خطيبا جامد العبارة ، خامد العاطفة ، مستهينا بهذا الغول المفترس كما يفعل بعض صغـــار الفنانين الذين يشوهون بهذه النظرة الضيقة السطحية اول ما يشوهون المدرسة الواقعية ، مختفين وراء الجمل المحفوظة التي لا تختلط بعاطفة انسانية ، ولا تنبع من معاناة حقيقية ، البياتي يعبر عن الموت كفنـــان وليس كعالم ، كمنفعل وليس كمحلل ، وهو حقا يستهدي بفلسفة ذات قوانين موضوعية ، ولكنه يمتلك الذاتية والاصالة ، وبهذا ايضا يفترق شاعرنا عن ببغاوات الفلسفة التشاؤمية الميتة، التي تعمق المأساة ولا تملك لها حلا ، والذين اضحت عباراتهم النائحة خالية من المعنى والعمق، لقد تهرأت اشعارهم المستعارة من التداول، وتحولت الى تقريرية سخيفة.

البياتي لا يفصل في انفعاله الموت عن الحياة ، وهو لا يريد ان يموت لانه يحب الارض والاطفال والزيتون ، وكل المسرات ، ان الموت شيء كريه للغاية يحيل وجودنا في لحظات الى بئر سحيقة من الاحزان واللامعنى ، ولكن ليست هذه قمة المأساة ، المأساة الحقيقة هي ان نحيـــا ممرغين في اوحال الفقر ، تنهشنا انياب العبودية ونفقد قدرتنا علـــى تخطيط مصيرنا واختياره ، قمة المأساة حقا ، ان يفكر بعض ورثة مخلفات القرون في اغراق العالم في الدماء حتى هذه الحياة القصيرة ملهمتنـــا على التفكير والمعاناة والحب لا يريدون لنا ان نحياها ، وبهذه النظـرة المنفعلة المتكاملة للمأساة ، يربط شاعرنا بين قضيتي الموت والحرية ، فالحرية تعني الحياة ـ كما يقول لوركا ـ وتعني ايضا ان نفكر احـرارا طلقاء في كل المشاكل وحتى في مشكلة الموت الخالدة .

عبد الوهاب البياتي اذن ليس عدميا وجوديا ، من اصحاب الكلمات المأثورة المهترئة ، وان الحياة لديه فوق الموت ، والنضال من اجل ان تكون سعيدة مشرقة هو الواجب الذي اعطاه كل ذرة من دمه ، ومع ذلك فان استهداءه بفلسفة علمية لا يعني حتى من وجهة نظر هذه الفلسفـــة على الاطلاق ان يستقبل الاحداث في نثرية لامبالية ، في جمل محفوظة، وهتافات مستجدية للتصفيق وهذا يعني انه ادرك بموهبته اولا وعمـــق انفعاله ، ثم بثقافته ماهية الفن الحقيقية ، مادته واسلوبه ، الاختلاف النوعي بين الفن والمنطق ، وماهي حدود ووظيفة اللغة في كل منهما ـ وهذا ما أوردنا له المقدمة الضرورية .

لنترك هذه التعميمات الى النماذج والتطبيق !

لقد هز اعماق البياتي موت همينجواي الذي تغلغل في مـــأساة الموت، صريعا ببندقية صيد ، اي قدر عابث ، اين الغلام ؟ صرخة دامية اطلقها همينجواي ، حينما تلوى الصاري ، ونهشت الجوارح عظـــام السمكة في اعماق البحر ، لقد صور في ـ الشيخ والبحر ـ رحلـــة الانسان المرهقة اصراره على سحق الفشل ، ولكن همينجواي يرى ان المصير لا يرحم الانسان ، لقد ماتت كارين وهي تلد الحياة ، وقد مـــات همينجواي منتحرا ايضا .

اين الثيران الحقيقية التي صرعته ؟ أين من اغلقوا في وجهـــه اسبانيا ؟ ما هو دور الصحف الفاشستية في مقتل همينجواي ، هـــل تغلق عين البياتي مأساة موت همينجواي ، عن صانعي الموت في مدريد ، قتلة لوركا والاف الشهداء :

الموت في مدريد
والدم في الوريد
والبرتقال تحت اقدامك والجليد
اعياد اسبانيا بلا مواكب
احزان اسبانيا بلا حدود

اي مرارة تنضحها هذه الابيات ، واي نغم اسيان ، اجل احزان اسبانيا بلا حدود ، انها تتسربل في الدموع .

لمن تدق هذه الاجراس ؟
لوركا صامت
والدم في آنية الورود

لقد كان الحكم الفاشستي في اسبانيا هو المجرم الحقيقي ، ولقد قال همينجواي يوما ان الفاشية كذبة بلقاء لا يصدقها الا المرضى، الدم في آنية الورد ،هذا احساس الشاعر بالتناقض ، ان عبارات الفاشست الطنانة ، وزخرفة العبارات وتزوير الشعارات لا تطمس الحقيقة :

وليل غرناطة . تخت قبعات الحرس الاسود والحديد
يموت ، والاطفال في المهود
يبكون
لوركـا صامت
وانت في مدريد
سلاحك الالـم
والكلمات والبراكين التي تقذف بالحمم .

انها مدينة الخراب ، حيث يبكي الاطفال في المهود ، والدم في آنية الورد ، صور تثير القشعريرة ، وتجلدنا كالسياط ، ولكننـا لـم نسمع صراخا او هتافا او استعراضا فارغا لعضلات الالفاظ . والحزن هنا انعكاس عميق يعبر عنه الشاعر بالصور التي تقطر دما ، ووراء هذا النعي العميق ، وعي بجذور المشكلة ، بامتدادها الانساني ، باسبابهـا الموضوعية وهذا هو الدور التعليمي في الفن مختفيا كالانهار التحتيـة فـي الصحراء .

ويعود الشاعر الى مأساة همينجواي نفسه :

لمن تدق هذه الاجراس ؟
انت صامت ، والدم
يخضب السرير ، والغابات والقمم

ولكن الصمت لا يجدي ، وكذلك ان تغرق في المأساة جريمة ، وهنا الجانب الاخر ، والوجه المشرق للشاعر ، فالحياة اسطورة خلابة، كل ما فيها : روعة الذكريات، الجمال ، الموسيقى ، الاصدقاء ، الشرف، اروع ما في الحياة انتحياها :

النار في الدخان
والخمر في الجرة ، والوردة في البستان
والكلمات والعصافير ، وداء الحب والزمان

كل شيء يثير النشوة ، يوقظ الحس ، يدعو الى الحب ولكن؟

صمت البحار اقلق الربان
بكان ... يا ما كان
كان صراعا داميا بين قوى الظلام والانسان .

اي معنى لهذه الحياة ان ركدت كسطح البركة المتعفنة ، ان احنينا الجباه لقوى الظلام ، ان خوتمن الهدف النبيل ، وطمست انسانيتنـا مخالب الهوان .

ما هو الثمن الذي يدفعه الشرفاء ، حينما تتلقفهم المقاديـر والشباك ، وتلتهمهم حرائق الاعداء ، وتمتص قطرات حياتهم واجبـات الكفاح ، وهم اقوى اقبالا على الحياة والحب .

الساعة الثامنة ، الليلة
في حديقة النسيان
سنلتقـي !
وغاب في شوارع المدينة المجهولة المكان
وانتحبت صبية
واطبقت عينان
وجدته في كتب الرحالة الاسيان
كان يغني تحت رايات شعوب الارض ،
تحت راية الانسان .

ويعود البياتي بعد ان ينهي مقطوعته بتأثيرية موسيقية حزينـة كالصدى المنغوم الجنائزي ، تشدنا الى الزهو بالبطل ، الى الاقتنـاع بدوره على مدى التاريخ ، وانه لم يذهب هدرا ، فحتى الاطفال يطبقون الاعين وينتحبون ، يعود الىالموت من جديد ، لحقيقة مجردة بشعـة ، ترتعد من مجرد تصورها القلوب .

ويسوق الشاعر بعض كلمات للوركا ، الذي كان يستبشع المـوت الرخيص في اسبانيا ثم اعدم بالرصاص ، والهمت مأساته وجـدانات الشعراء في شعبه ، وفي كل مكان ، وهنا يركز البياتي كلماتهُ ، ويغدو النغم قصيرا تأثيريا ، وكأنه ينبع من اعما قلا حدود لها ، وتصبح الكلمات طاقات موسيقية ذات ايحاءوظلال، كأن النثر والسرد ، اي محاولة بدون هذا الشكل ، لا تستطيع ان تلمس المأساة :

الموت حتف الانف
لوركا قال لي
وقال لي القمر
ضيعتني
ضيعك الوتر
موتك الضجر
رحلت والربيع في طريقنا
وارتحل الفجر
وأحرقت خيامهم
واحترق الزهر .

اية نهاية للانسان حين يرحل والربيع في طريقه اليه ، يسحقـه الضجر ، فالريح في مواجهته ، تعصف باحلامه ،وتجره الى هاويةالعدم.

ازاء هذا المصير لا نملك الا اغنية ينزف منها الدم ، فايمنطق او فلسفة حكيمة تستطيع ان تبرر هذه النهاية ، فلنكن صادقين ولنعترف ببشاعة هذا القانون الصارم :

سألت عنك الشيخ محي الدين
قال : في فمي حجر
رسالة العشق ومعبودك تحت قدمي ، القمر
مذابح العالم في قلبك والاطلال والذكر
قال صديقي الشيخ محي الدين ، لا تسأل عن الخبر
فالناس يمضون ولا يأتون ،
والسر على شفاهنا انتحر

وان كانت المأساة تعتصر الشاعر ، وتجذبه احيانا الى الطـريق المسدود ، فذلك لان لديه قلبا يمور بالحياة ، يحب ان يحيا كللحظة ، يجسدها في انعال ونغم وقصائد ، ولهذا ، وانطلاقا من عشق الحياة ، فان البياتي تنهار لديه امام الموت كل السدود ، الخلافات الفكـرية والعقائدية ، تختفي حينما يموت البير كامو ، فيدعوه الشاعر الىالعودة للنبع ، لامنا الارض ، لحياتنا اليتيمة البهيجة :

سبعة اقمار على التلال
حافية ، اسلحة ، اقوال ،
ضمائر ، اقفال
للبيع ـ انت متعب تعال
تهيم في حدائق الليال
تطارد الظلال
نرقب فجر العالم الجديد في الجبال
نمسك في شباكنا فراشة المحال
نشرب شاي العصر في وهران ، فالاغلال
ادمتك يا سيزيف
يا فارس عصر ادرك الزلزال .

أن البياتي تشي كلماته بعتاب مرير لالبير كامو حينما يقول : تعال نشرب شاي العصر في وهران ، ونرقب الفجر الجديد على التلال ، انه يحثه على الحياة ، انيطلق صيحة الظفر ، ويوقد النيران في الافكار، ولكنه مشدود الى حجر تفمره الاعشاب والاملاح والمطر ، وتنتهي المرثية الانسانية التي تحتشد فيها انفعالات الغربة والعجز والتعاطف، مساندة الانسان لاخيه الانسان ، الى بيتين من الشعر يلخصان في اعجاز بلاغي عجيب ، كيف ان كل هذا النداء الدامي الولهان يذهب عريبا كالريح في الخلاء لانه لا مفر من النهاية :

النهر للمنبع لا يعود
النهر في رحلته يكتسح السدود

فالبير كامو قد حكم عليه التاريخ ، ولن يشفع له نداء ما بالعودة، فالانسان له حياة واحدة ، فهذا ما يدفع البياتي الى التمسك بالحرية ، ولكنها ليست حرية مطلقة وجودية ، انها تحرير الانسان من قيوده الاجتماعية ، لينطلق الى البحر والاختيار الكاملين .

قبل الحديث عن الحرية في مفهوم البياتي ، احب ان اسجل الاهمية القصوى لفهم الشاعر لوظيفة اللغة في الشعر ، انها لديه مركزة وموحية ، الضروري للصورة من الالفاظ ، والكلمات عالم ثري خصيب فالاختيار اذن يحتاج الى موهبة فذة .

مشهد عجيب ايضا عن موت انسان بسيط ، فنان يغني للقمر والحياة ، وتتلاشى اعداء نغماته ، فيهتز الشاعر من الاعماق ، ويثير فينا انفعالات لا حد لها ليست من خلال الصورة الشعرية التي رسمها في تركيز مذهل وانما من خلال القافية الحزينة والكلمات المنغمسة في الدم :

— ١ —
رأيته يلعب بالقلوب واليأقوت
— ٢ —
رأيته : يموت
— ٣ —
قميصه ملطخ بالتوت
وخنجر في قلبه ،
وخيط عنكبوت
يلتف حول نايه المحطم الصموت
وقمر اخضر في عيونه
يغيب عبر شرفات الليل والبيوت
وهو على قارعة الطريق في سكينة يموت

صورة مركزة مليئة بالرموز فهذا الفنان عبقري يلعب بالقلوب واليأقوت ، يحب الخضرة والطبيعة والحياة ، ويكدح في خضمها ، فقميصه ملطخ بالتوت ، وخنجر منغمس في قلبه ، وهنا رمز لوحشية المجتمع ، وهمجية الموت معا ، والضياع والغربة يرمز بهما بالعنكبوت الذي يلتف حوله نايه الصموت المحطم ، انه النسيان والعقوق ، ولكن هذا الفنان الذي لا يرمز فقط لهذه الفئة الشقية ، وانما يجسد كل الناس البسطاء ، الذين تصرعهم ظروف القهر وهم يعشقون الحياة ولا يعرفون الكراهية ، يتلاشى القمر الاخضر في عيونه ، يغيب عبر البيوت وشرفات الليل ، وهو يلفظ انفاسه في سكينة ونبل !

والادوات الفنية هنا لا تستخدم البلاغة العربية بمفهومها القديم (الكناية او التشبيه والمشبه به الخ.) وانما تلجأ الى الرمز ،التوت، العنكبوت ، الناي ، الخنجر الخ. ، وتلتحم هذه الرموز لتخدم في النهاية المحتوى الانساني والدلالات التي تكتنز بها القصيدة .

وثمة ادراك رائع لدور القافية في القصيدة الجديدة ، انها خاتمة موسيقية تثبت الانفعال ولا تخنقه ، وهي متموجة متداخلة ، تميز الشعر العربي عن غيره ، فازاء قصائد البياتي لا يسعك الا ان تتذوق قصائد عربية لحما ودما ، عربية من طراز جديد مستفيدة من الاشكال العالمية ، والثقافات الانسانية ، والتجربة العميقة في حياة الشاعر ومن نضالاته.

ولان البياتي يكره تزييف انفعالاته ، ويمقت البيغاوية والعهر الفكري وتنميق الالفاظ ، والشعارات المزيفة ، يكره كل الذين يبيعون ضمائرهم في سوق النخاسة فانه قد التزم موقفه الفكري والعقائدي ، اختار طريق الحرية والاحرار رغم وعورة هذا الطريق .

وفي هذه القصيدة التي تعبر — من وجهة نظرنا — عن تعشق البياتي للحرية ، للشرف عن شجبه للادوار الحقيرة التي تستغل فيها الفنون ، تكتشف لماذا يقتصد البياتي في كلماته ولا يثرثر ويبوح ويحلل، وانما يشي ويوحي ويكثف :

سيداتي ، سادتي
خطبتي كانت قصيره
فانا اكره ان يستغرق اللفظ زماني
ولساني
ليس سيفا من خشب
كلماتي ، سيداتي ، من ذهب
كلماتي سادتي ، كانت عناقيد الغضب
وانا لست بسكران ولكني متعب

والموقف البطولي الذي يلتزمه الشاعر من قضية الحرية يسوق له كثيرا من المتاعب والغربة والضياع ، فهو ليس بطلا اغريقيا ، خارقا للغاية ، ولكنه معذب منهوك النفس :

الشموع انطفأت
والليالي بردت
وانا احمل قلبي في حقيبه
مثل طفل ميت أغرق ، بالدمع صليبه
عبر الاف الخيانات والاف الاكاذيب الحقيره
خطبتي كانت قصيره

والانسان الشاعر لا يهذي هنا وانما يتألم في صدق ، انه واع بعذابه تعتصره المشاكل ، وتشدخ طاه الى التضحية فقايا امتهوالانسانية:

وانا لست بسكران ولكني اسخر
من عذابي
وانا لست بقيصر
ان روما تحترق
ان روحي تختنق
بين الاف الخيانات وألاف الاكاذيب الحقيره
فوداعـا
سيداتي ، سادتي .

واختيار الشاعر لكلمات : سيداتي ، سادتي سخرية ذكية من اكاذيب الدعاية ، والخطابة الجوفاء وهو يرسم بذلك جوا نفسيا للمقابلة بين الصدق والكذب في الفن والحياة .

وحرية البياتي في ان يحزن ، والا يخضع احاسيسه لغير التجربة النفسية ، تعطي لهذا اللون بالذات اروع ما في نغماته من صدقواصالة واداء فني هادر من القلب ،فالغربة التي تلون حياته ، والاحساس بالضياع والقلق من المصير الرهيب تمنح قصائده كل الدفء والشاعرية، وهو لا يخط مشاعره تلك ، بمقاييس مسبقة ، وانما يتركها تحكي كما تريد عن الاسى ، وهيمهما جمحت فلن تستطيع ان تنفصل في النهاية عن خطه الفكري :

تركتني يسوع في منتصف الطريق
اجف كالنواة ،
كالكتاب فوق الرف
كالغريق
انزف في مجاعة الحريق
دمـا ،
اموت
كلماتي احترقت
يسـوع
في منتصف الطريق

حدائق الثلج بقلبي اظلمت ، وانطفأ البريق .

فاين يسوع اذن ليطفىء هذا العذاب ، انه يحمل صليبه ودمه ينزف في قبعته ، وقد تنكر له الناس من حوله حتى مدينته قد دمرها الزلزال وعاثت بها الفئران ، وغاض الماء في العيون :

بحثت عنك طول ليل الليل
وانتظرت ،
ان تمر في الطريق
تمد لي عبر المتاريس يدي صديق .

ويرسم صورة خلفية لهذا العذاب المقيم الموحش ، فلا منديل يلو ح بامل ، ولا قنديل في طريقه ، وهو في هذا الشعر النابض بحرارة المعاناة والصدق الشعوري ، يتألق ، حتى نكاد ان نسمع أزيز الحريق في دمه :

الذئب في الافول
يعوي
وغابات الليالي احترقت
ومات في المجهول
سر صغير صامت مفلول

وهذه الوحدة الحزينة ، والاحساس بالسأم واللاجدوى لحظات تنبع من حرية البياتي في اختيار الموقف الذي يمليه الضمير ، وهي لحظات انسانية لا ينكرها الا الغارقون في صقيع التجريد ، والبطولة المستعارة ، ومن اجل هذه الحرية يخاطب الحرف العائد « سندباده في رحلة الحياة » :

ايها الحرف
الذي علمني حب الحياه
ايها الحرف الاله
اه لا تطفىء مصابيحك اه
كل ما اكتبه محض صلاه
لك ، للعالم ، ما اكتبه
محض صلاه
وسلاح في يدي ضد السلاطين واحفاد الغزاه .

لقد علمه الحرف كيف يجوب البحار ، ويشهر سلاح الكلمة في اوجه الاعداء ، ولكنه في غربته ـ النفسية والمادية ـ لا يلفق الاحاسيس العنترية ، التي تختصر الالم لتنعق ببطولات مفتعلة ، فالبطولة الحقيقية ان تحترق ، بلا ركوع ، وان تصرخ دون ان تحيد عن العقيدة ، وان تلهث في الطريق الوعر ولا تسقط في الاوحال:

انني احمل بغداد معي في القلب من دار لدار
ابدا لن يستر الثوب المعار
عري اهلي
اه من عري القفار
اه لو عدت الى بيتي
لزقت مكاتيبي واوراق الغبار
ولعلمت الصغار
كيف ابحرنا على مركب نار

وازاء هذه الحرية التي تجسدها قصائده الذاتية ، فانه يقسم للحرف ان شراعه قد اقلع مع ريح الكلمات ، وانه سيحتضن الصدق حتى النهاية :

ايها الريح الذي يحمل مركب
سندبادي
ايها الحرف المعذب
اينما تذهب اذهب ...
... ان كيسي بالنجوم
بالازاهير مليء بالكروم
معك الليلة خذني
ايها الحرف الرؤم
عبر غابات الليالي
وبسانين الهموم
...
لتهب العاصفه
لتهب العاصفه

وقد هبت الاعاصير على شبابه ، ولكنها لم تطفىء جذوة قلبه ، فماذا يريد هذا الفارس من الحرف ،ماذا يجذبه لمعركة المصير ؟ هنا يعلو البياتي على احزانه ، ويمتشق الحسام ، تعري كلماته ظلمة الزيف ولا ترهب اوتارها :

الشمس والفارس فوق المدخنه
ينازل اللصوص والمشوهين
بالحروف المؤمنه
يزرع صيف الازمنه
يثار للحقيقة الممتهنه
يحمل في ضلوعه صليبه ووطنه
يموت
فوق المدخنه
وحائط الرصاص والنوافذ المسننه
يمد الف خنجر منها
والف لفظة مبطنه
لتطعنه
لتطعنه
وهو يموت حاملا صليبه ووطنه

ان التعبير عن الموت هو ابشع حقائق الوجود ، والتغني بالحرية وهي اروع ما في الرحلة المكدودة للانسان ، تكسبان هذا الشعر كل زخمه وعبقه وعمقه ، وبالقدر الذي يلتهب فيه الشاعر بالتجربة ، وبمقدار الصدق الذي يعبر به عن المعاناة ووعثاء الطريق تلتحم الوحدة النفسية في نسيج حي من الايقاع والصور ، وتبتعد الكلمات العامة ، والمعاني المجردة والتهويم ، وتبدو كأن هذه النبرات الرائعة الصادقة لم تطرق اذاننا من قبل .

وكما لا يستطيع انسان يمتلك ضميرا حيا ان يغض الطرف عما يدور على كوكبنا اليوم من مشاكل ، وما يمور فيه من صراع ، وكما لا نملك ـ شئنا ام لم نشأ ـ الا ان نقف في طرف من المعركة ، حتى ان دفنا الرأس في الرمل، فان البياتي كشاعر واع صادق في التعبير عن صوت امته ، مساهم في نضالاتها ، يتقبل كل ما يترتب على هذا الموقف، وعزاؤه في ذلك الشعر ، واصوات رفاقه الشعراء العرب ، ونغمات اراجون وناظم حكمت وبابلو نيرودا وكل من حمل القيثار وصليب العذاب ، فمن خلال الاصوات المؤمنة يزداد اصرار الشاعر ، يناجي اراجون :

كلماتك الخضراء في ليل انتظاري
نفذت بلحمي مثل نار
ثارت الى صمت البحار
عبرت صحاري
حلت بداري
ضيفا
وباتت في قراري

وكلمات اراجون تبلل احزان الشاعر ، وتذوب من قلبه هموم الغربة والبعد عن الوطن ، وتنكر الاصدقاء ، تماما مثل كلمات البياتي في هذا الديوان (١) .

جيلي عبد الرحمن

---

(١) كرست هذه الدراسة لديوان الشاعر الجديد «النار والكلمات».